

الوحي والفلسفة عند ابن رشد

د. إبراهيم بورشاشن¹

أكاد أقول جازما إن كثيرا من دارسي ابن رشد أخطأوا فهم هذا الفيلسوف المسلم لسبب بسيط يتجلى في عدم تساؤلهم: كيف أمكن لرجل خرج من بيت عريق في الفقه، وظل طول حياته وفيها له وما تنكر له أبدا، أن ينفق حياته في تعليم أرسطو وتعلمه؟

قال بعضهم إن ابن رشد كان يعيش ضربا من الانفصام بين شخصيته الفقهية وشخصيته الفلسفية، وقال آخرون ما كان ابن رشد فقيها أبدا بهذا المعنى الذي ينسب إليه كتاب جليل في الفقه مثل بداية المجتهد، وإنما هو كتاب لفقيه خراساني سطا عليه أبو الوليد ونسبه إلى نفسه، واتهم بعضهم الآخر ابن رشد بوقوعه في تقليد أرسطو تقليدا أذهله عن الحقيقة ذهولا كبيرا...

لكني اعتقد أن هذا السؤال الذي بدأنا به هو على بساطته يحمل دلالات كبيرة لمن تفقد هذه القوة الفقهية العميقة السارية في أجزاء المتن الرشدي.

أتحدث عن القوة الفقهية هنا بالمعنى العام، إذ الرجل فقيه بالمعنى التقليدي الذي تعرف بها كلمة فقه، فهو العالم بالأجزاء الكبرى للثقافة الفقهية المكونة من علم الأصول؛ علم أصول الفقه وعلم الكلام، وهو فقيه له معرفة تامة بالأحكام العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، وهو فقيه بعلوم العربية، حافظ لديواني أبي تمام والمتنبي، وله معرفة بالمنطق كبيرة، وفقيه بالوحي؛ قرأنا وسنة مع حرص كبير على تدبرهما من جهة نظر فقهية، كما صنع في بداية المجتهد وفي مختصر المستصفي، ولكن أيضا من جهة فلسفية خاصة، وهو الجانب الذي يهمننا في هذا العرض.

لا يستطيع المرء أن يفهم كيف اشتغل ابن رشد بالنظر الفلسفي وتفرغ لشرح المتن الأرسطي على طريقة شرح المفسرين للقرآن الكريم، إذا لم يستطع أن يتبين أثر الوحي في نظر ابن رشد إلى فعل التفلسف من جهة، وأثره في نظريته إلى كثير من القضايا الفلسفية

1 مفكر، وشاعر مغربي معاصر.

التي وقف عندها وعالجها بصدقها الكبير وحرارته العلمية المعهودة، بغض النظر عما إذا كان الرجل صائبا أو مخطئا لأننا في مجال التأويلات تكون الأعذار أسبق من العذل.

حقا، إن النصوص الثرية في هذا المجال والتي تمنح إمكانية كبرى لتأمل موضوع مثل هذا هي ما يسمى بالثلاثية الشهيرة؛ أقصد "فصل المقال" و"الكشف عن مناهج الأدلة" و"تهافت التهافت". لكن هذه النصوص على منزلتها الكبرى لا تمنع من هذا المدد الرفيع التي تمدنا به الكتب المنطقية والطبيعية والميتافيزيقية من حين لآخر لتجلي الموضوع أكثر وتضيئه أحسن.

والقصد من هذا الموضوع أن نقف على الطريقة التي تعامل بها ابن رشد مع الوحي، وكيف وظفه لتأسيس فعل التفلسف من جهة، وكيف استطاع من خلال قراءة خاصة لنصوصه أن يحدث انسجاما فكريا وعاطفيا عميقا بينه وبين الممارسة الفلسفية العميقة التي كان يمارسها ضربا من العبادة الإبراهيمية إذا صح هذا التعبير. فكيف يرى ابن رشد الوحي؟ وكيف يشكل الوحي أساسا وأفقا للتفلسف عند ابن رشد؟

1. الوحي عند ابن رشد

يتكرر مفهوم الوحي كثيرا في نصوص ابن رشد؛ فللوهي "مفهوم" أي معنى أطلع الله عليه من اختصه "بحكمته ووقفهم لفهم شريعته واتباع سنته"، وله "أمين"، وهو "خاتم رسله" صلوات الله عليه¹، وهو يدل على الطريق إلى معرفة الله²، كما يدل على الطريق الصحيح في التعامل مع الجمهور³، لكن ما الوحي؟

الوحي عند ابن رشد هو الكلام الإلهي، والكلام "ليس شيئا أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه، أو يصير المخاطب بحيث ينكشف له ذلك العلم الذي في نفسه"⁴ ولما كان الكلام في الشاهد يكون بواسطة اللفظ "وجب أن يكون

1. ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تحقيق مصطفى حنفي، مركز دراسات الوحدة العربية،

الطبعة الأولى، بيروت 1998 ص 99

2. المصدر نفسه، صص 101.102

3. المصدر نفسه، صص 103 و104 و105

4. المصدر نفسه، ص 131

هذا الفعل من الله تعالى، في نفس من اصطفى من عباده، بواسطة ما، إلا أنه ليس يجب أن يكون لفظاً، ولا بد، مخلوقاً له¹ يعني كما ذهب المعتزلة، بل قد يكون بواسطة ملك" كما في قوله تعالى في سورة الشورى "أو يرسل رسولا". وقد يكون الوحي "بغير واسطة لفظ يخلقه"² بل بفعل في السامع ينكشف له به المعنى المنشود، كما في الآيتين 9 و10 من سورة النجم "فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى" وقد يكون بواسطة لفظ يخلقه الله في سمع المختص بكلامه سبحانه" كما في الآية 164 من سورة النساء "وكلم الله تكليماً". ويعتقد ابن رشد أن هذه المراتب الثلاث هي ما تشير إليه الآية الكريمة: "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء" الشورى³ 51. لكن ابن رشد يضيف معنى آخر للوحي وهو الوحي الذي يأتي العلماء "الذين هم ورثة الأنبياء" حيث يلقي الله كلامه إليهم "بواسطة البراهين"⁴، وهذه الحجة صح عند العلماء أن القرآن الكريم هو كلام الله⁵، إن ابن رشد هنا يوسع مفهوم الوحي؛ فكما يأتي الوحي النبي فهو يأتي العلماء أيضاً، وهو مسلك في تعريف الوحي طريف، وكأننا في الوحي أمام الكتاب العزيز وأمام السنة النبوية وأمام أقول الحكماء أيضاً، ولعله يستوي في ذلك قوله تعالى "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه"⁶، ظاهرها أن الله تعالى يوحي إلى عباده من أولى العلم البراهين لتبكيك المخالفين.

2. الوحي يدعو إلى التفلسف

يعتبر كتاب "فصل المقال" من أهم الكتب التي ألفت في تاريخ الثقافة الفلسفية الإسلامية، وهو الكتاب الذي ما تزال له راهنية خاصة، خاصة وأنه يلهم الكثيرين ممن يطمحون إلى تجاوز هذه الهوة التي ما فتئت تزداد بين المعقول واللامعقول في الفكر الإسلامي المعاصر. عقلاني متنور وفكر يلج في العتمة الفكرية، وقد كان الكتاب ملهما للحجوي في خمسينات القرن الماضي وملهما للجابري في ثمانينات القرن الماضي ولا يزال

1. المصدر نفسه والصفحة

2. المصدر نفسه والصفحة

3. المصدر نفسه، ص 131

4. المصدر نفسه ص 132

5. المصدر نفسه، ص 132

6. سورة الأنعام آية 84

منبعاً ثرياً للإلهام إلى الحد الذي يمكن معه القول: إن ثقافتنا الإسلامية تحتاج في كل عصر إلى من يجدد لها علاقتها بالفكر الفلسفي الجديد..

في هذا الكتاب، استطاع ابن رشد أن يقدم انطلاقة من الوحي تأويلاً طريفاً للفكر الفلسفي يجعله جزءاً من البنية العامة للثقافة الإسلامية.

عرف ابن رشد التفلسف بأنه "النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع"¹؛ وهو مقصد الشرع نفسه أيضاً، وهو ما تؤكد به آية الذكر الحكيم، فالشرع قد "ندب إلى اعتبار الموجودات وحث على ذلك"².

لا يجد ابن رشد صعوبة كبرى في إيراد الآيات الدالة على هذا المعنى الذي يرشد "إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به"³ وخاصة الآية الخامسة والسبعين من سورة الأنعام التي أرى فيها إبراهيم "ملكوت السموات والأرض"، وآية سورة الحشر التاسعة والخمسين: "فاعتبروا يا أولي الأبصار".

ف"القرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار" كما يقول ابن رشد⁴، وبهذا الطريق انفصل عن طريق التصوف الذي يزعم "أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقي في النفس عند تجريدتها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب"⁵.

لكن ما هو الاعتبار المذكور في آية سورة الحشر، يعرف ابن رشد الاعتبار بأنه "استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه"⁶ وهو المعنى الذي تعطيه كتب المنطق للقياس، فالاعتبار في الشرع هو القياس في الفلسفة، ومنزلة الاعتبار من الشرع كمنزلة القياس من الفلسفة، وهو ما يستخرج منه ابن رشد أن الشرع دعانا إلى النظر في الموجودات من خلال استعمال القياس المنطقي، الذي هو القياس العقلي والبرهاني على الخصوص،

1. ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، قدم له وعلق عليه البير نصري نادر، دار المشرق، الطلعة الثالثة 1973، ص 27.

2. المصدر نفسه والصفحة.

3. المصدر نفسه ص 28

4. الكشف عن مناهج الأدلة، مرجع سابق ص 117

5. المصدر نفسه ص 117

6. فصل المقال، مرجع سابق ص 28

فالشرع "حث على معرفة الله تعالى وموجوداته بالبرهان"¹ وهذه الدعوة تحتم على الناظر التعرف على الأجزاء الثمانية للمنطق لأنها "تنزل من النظر منزلة الآلات من العمل"².

وعندما يصبح الاعتبار عند ابن رشد هو المنطق الأرسطي، فإن الموجودات عنده تصبح أصناف الموجودات الثلاثة التي ينقسم إليها لفظ الموجود؛ الموجود الطبيعي المتحرك المحايث للمادة، وهو موضوع العلم الطبيعي بأجزائه الثمانية وخاصة كتاب السماع الطبيعي الذي تقف في المقالة السابعة والثامنة منه على التدليل على وجود الله بدليل الحركة، ثم الموجود المفارق بالقول، وهو موضوع علوم التعاليم بأجزائه المعروفة، ثم الموجود المفارق بالقول والوجود، بأجزائه الثلاثة أو الخمسة أو مقالاته المعروفة في شرح ما بعد الطبيعة الذي هو مناط الحديث عن الصانع خاصة في مقالة اللام³. لكن ابن رشد في هذا السياق نجده يقصر نظره واعتباره على الموجودات الطبيعية على الخصوص، إذ هي مناط تفكير الجمهور.

وهكذا استطاع ابن رشد أن يجمع في تعريف بليغ أجزاء الفلسفة كلها من منطق وعلم طبيعي ورياضيات وإلهيات، ليؤكد "أن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع إذ كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه، وأن من نهى عن النظر فيها من كان أهلاً للنظر فيها.. فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله، وهو باب النظر المؤدي إلى معرفته حق المعرفة"⁴.

لكن ما الطريق إلى معرفة الله تعالى؟

في مناهج الأدلة يقدم ابن رشد علم كلام جديد قائم على النظر في الكتاب العزيز الذي تحمل آياته معاني تجعلها ملائمة للجمهور وللخواص كذلك.

1- فصل المقال، مرجع سابق ص 29

2- المصدر نفسه والصفحة

3- انظر في هذا الصدد كتاب إحصاء العلوم لأبي نصر الفارابي، قدم له وشرحه ويوبه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط 1، 1996

4- فصل المقال، مرجع سابق، ص 33

. فدلالات الآيات "مغروزة في الفطرة بالطبع"¹، فهناك موافقة بين الآيات التي دعا الله الناس منها إلى معرفته بها وبين الفطرة المهيئة لإدراك هذا المعنى².

. آيات الكتاب العزيز تعطي القدر من المعرفة الذي يحتاج إليه الجمهور ولا يزيد عليه، في حين أن طريق المتكلمين قائمة على الاستقصاء والتصريح بأشياء ما كان لهم أن يصرحوا بها لأنها أن تضلل الجمهور أخرى منها أن ترشدهم³ وتعليل ابن رشد لذلك أن قصد الشارع هو السعادة المشتركة للجميع، وليس لفئة دون فئة، ولذلك سلك في تعليم الناس مناهج محددة، "وصرح بقدر من المعرفة محدد لا يزيد فيه أحد أو ينقص منه أو يحرفه أو يؤوله إلا انتفت هذه السعادة وتعطلت"⁴. وإذا كان من سبب في هذه الحيرة الواقعة في الشريعة فهو التصريح في الشرع بما لم يأذن الله ورسوله به⁵.

- البساطة والبرهان، تتميز الأدلة القرآنية عند ابن رشد بميزتين اثنتين؛ فهي بسيطة من جهة أي أن مقدماتها قليلة، وهي من جهة أخرى برهانية أي أن نتائجها يقينية، وبهذه الجهة يكون الجمهور قادرا على فهم الدليل الشرعي ويقع له به التصديق⁶، أما المناهج التي وظفها علماء الكلام من أشعرية ومعتزلة فهي طرق معتاصرة على الجمهور فضلا عن أنها لا توصل إلى يقين، فإذا كان القرآن الكريم قد نزل وفق المعاني التي يفهمها الجمهور فإن المتكلمين قد أحدثوا معاني جديدة ينبو عنها فهم الجمهور مما جعلهم يحدثون بدعا كثيرة في الإسلام⁷ غيرت الشريعة الأولى، أو الشرع الأول حسب تعبير ابن رشد⁸.

1- الكشف عن مناهج الأدلة، مرجع سابق ص 125

2- المصدر نفسه ص 121 وص 136،

3- المصدر نفسه، ص 135

4- المصدر نفسه ص 136

5- المصدر نفسه، ص 157

6- المصدر نفسه، ص 123 وص 161، وص 163.

7- من هذه البدع: تساؤلهم هل الصفات هي الذات أم زائدة على الذات؟ هل هي نفسية أم معنوية؟ تصريحهم بما سكت عنه الشرع حيث لا ينبغي أن يصرح في الجسمانية بنفي ولا إثبات ص 139، وص 141 قالت الأشعرية برأي غريب في العقل والشرع في مسألة العدل والجور، حيث صرحت بمعنى لم يصرح به الشرع... وص 194.

8- مناهج الأدلة، مرجع سابق ص 100 و ص 159

لذلك سيعمد ابن رشد لتصفح آيات الكتاب العزيز ويستخرج منها جملة المعارف التي رأى أنها ضرورية للمسلم لبناء عقيدته سواء فيما يتعلق بإثبات وجود الله أو إثبات وحدانيته¹ وتنزيهه ومعرفته عن طريق صفاته الشهيبة التي تبتدئ بالعلم وتنتهي بالكلام مروراً بالحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر² وكذا عن طريق أفعاله من خلق للعالم إلى بعث للرسول إلى القضاء والقدر إلى التجوير والتعديل إلى المعاد.³

لكن ما القول فيمن درس الفلسفة وخرج بها عن الشرع؛ هنا أيضاً يعمد ابن رشد إلى الوحي للإجابة على هذا السؤال، فيشبهه هذا الشخص بذلك الرجل الذي جاء يشكو رسول الله إسهالاً كان بأخيه، فأمره الرسول عليه السلام أن يسقي أخاه العسل، فتزايد الإسهال به بسبب ذلك، وشكا ذلك إلى الرسول فقال له عليه السلام: "صدق الله وكذب بطن أخيك"⁴؛ يريد ابن رشد بهذا الحديث أن يستدل أن العسل نافع بطبعه وذاته لكن لا ينبغي أن "يترك لمكان مضرّة موجودة فيه بالعرض، وكذلك التفلسف فإن دخله ضرر فهو لا يكون إلا ضرراً لحقها بالعرض لا بالذات؛ وهذا الأمر لا يخص صناعة الفلسفة بل "هو شيء عارض لسائر الصنائع، فكم من فقيه كان الفقه سبباً لقلّة تورعه رغم أن صناعة الفقه تقتضي بالذات الفضيلة العملية."⁵ وهكذا يوظف ابن رشد الوحي للدفاع عن قيمة الفلسفة وبيان أن الدواء النافع بالعرض قد يكون لبعض الغاوين ضاراً بالعرض.

3. الوحي ومراتب الناس في التصديق

إذا كان الوحي يدل على طريق التفلسف، فإن هذا الطريق ليس مشاعاً للجميع، وإنما هو طريق "أفضل أصناف الناس" كما يقول ابن رشد.⁶ فلا بد من النظر إلى أن الناس أصناف في قدرتهم على المعرفة، إذ يعتبر هذا التمييز حجر الزاوية في التأسيس لفعل

1- المصدر نفسه، ص 101 إلى ص 127

2- المصدر نفسه، من ص 129 إلى ص 159

3- المصدر نفسه، ص 161. 204

4- فصل المقال، مرجع سابق ص 34

5- المصدر نفسه والصفحة

6- فصل المقال، ص 49

التفلسف عند ابن رشد، وهو ما نجده يتكرر في كثير من نصوصه، فهذا التمييز هو الذي يحدد لكل فئة طريقها الخاص في التعليم فيصيرف الجمهور عن المعرفة الفلسفية لأنه يتعرض للتشويش العقدي بسببها، ويجعلها خاصة بفئة الخواص، فلا مندوحة للجمهور عن التعليم الشرعي وكل من خرج عنه من حملة الفكرة إلا وأضلهم، ولذلك لا يرى ابن رشد للجمهور لا التعليم الصوفي ولا التعليم الكلامي ولا التعليم الفلسفي؛ كلها طرق لم يقل بها الشرع، وهي إلى أن تضلل الجمهور أقرب من أن تهديه، وإذا كان للتعليم الصوفي ناسه وللطريق الكلامي أربابه وللطريق الفلسفي عارفوه، فإن الطريق الشرعي هو طريق مشترك للجميع، وهذا التمايز سببه أن الناس في المعرفة مختلفون.

ويؤيد ابن رشد أطروحته هذه من خلال حجج نقلية يستوحها من القرآن الكريم والحديث الشريف.

ويجد ابن رشد في الوحي ما ينبه على أن طرق المعرفة بالله وبمخلوقاته هي طرق مختلفة وليس طريقا واحدا لأن "طبائع الناس متفاوتة في التصديق"¹، وهو ما نهت الشريعة الإلهية عليه حين دعت الناس من طرق مختلفة إلى معرفة الله تعالى. يستشهد ابن رشد هنا بالحديث النبوي الذي يعلن فيه عليه السلام أنه بعث إلى الأحمر والأسود، وهو ما يشي أن شريعته تتضمن طرق المعرفة كلها وهو ما يجده ابن رشد في الآية مائة وخمسة وعشرين من سورة النحل: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن". كما يعتمد ابن رشد على الآية الكريمة السابعة من سورة آل عمران: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه، آيات محكمات... إلى قوله" والراسخون في العلم"، حيث يختار ابن رشد الوقف هنا عند الراسخين في العلم، لأن سياق الحجج يقتضيه²، "لأنه إذا لم يكن أهل العلم يعلمون التأويل لم تكن لهم مزية تصديق توجب لهم من الإيمان به ما لا يوجد عند غير أهل العلم"³، وهو عنده تنبيه من الله تعالى لهؤلاء أنهم وحدهم

1- المصدر نفسه، ص 34

2- سرى في سياق آخر أن ابن رشد سيقف عند "...كل من عند ربنا" تهافت التهافت . تحقيق أحمد محفوظ وفريقه، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1998 ص 511

3- فصل المقال، مرجع سابق ص 39

القادرون على الإيمان الذي يكون من قبل البرهان وهذا لا يكون إلا مع العلم بالتأويل"¹،
التأويل الجامع بين ظاهر الشرع وباطنه خاص بأولي العلم.

إن الراسخين في العلم عند ابن رشد هم أهل صناعة البرهان، فإن الإيمان الذي خصهم الله به "يجب أن يكون بالبرهان"²، وهكذا يكون الله قد خصهم بعلمه وقرن شهادتهم في الكتاب العزيز بشهادته وشهادة ملائكته وهو في هذا يحيل إلى الآية الثامنة عشرة من سورة آل عمران في قوله تعالى: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم"³ في حين لا يغادر الجمهور ظواهر الشريعة لأن مرتبته في التصديق لا تسمح له بغير ذلك وإلا أدركته الحيرة والضلال.

لقد سمحت لابن رشد هذه القراءة للكتاب العزيز والحديث الشريف أن يؤسس لهذا المبدأ الخطير الذي اتخذه الفلاسفة عذرا بين أيديهم للاشتغال بالتفلسف ومنع الجمهور عنه، وقد سبب عدم الانتباه إلى التمييز بين مراتب الناس في التصديق في نقل المعرفة الفلسفية في إحداث فوضى معرفية كبرى في المجتمع الإسلامي نبه إليها الغزالي من قبل وإن كان حسب ابن رشد لم يسلم من الوقوع فيها.

4- الوحي وأرسطو أو الأفق الفلسفي للوحي

4-1- الشريعة الخاصة بالحكماء

نريد أن نشير هنا إلى أن ابن رشد وجد في الوحي ما ينميه على الطريق الفلسفي في تناول بعض القضايا التي ستهم الفلاسفة فيفصلون القول فيها في كتبهم فضلا عن بعض التأويلات التي يضيفها ابن رشد على أي الكتاب العزيز والتي تحمل نفحة فلسفية قوية مسaira في ذلك منهجه في أن طبيعة الشرع تسمح للعارف أن يفهم من آياته مالا يستطيعه غيره لأنه أوتي من قوة الفطرة وصناعة المعرفة ما يسمح له بذلك.

في كتاب الشرح الكبير لما بعد الطبيعة يتحدث ابن رشد عن "الشريعة الخاصة بالحكماء" في قوله: "فإن الشريعة الخاصة بالحكماء هي الفحص عن جميع الموجودات

1- فصل المقال، مرجع سابق ص 39

2- المصدر نفسه والصفحة

3- الكشف، مرجع سابق ص 121

إذ كان الخالق لا يعبد بعبادة أشرف من معرفة مصنوعاته التي تؤدي إلى معرفة ذاته سبحانه على الحقيقة الذي هو أشرف الأعمال عنده وأحظاها لديه¹.

قد يفهم البعض أن ابن رشد هنا يؤسس لشرعية خاصة تختلف عن الشريعة التي أرسلها الله لعباده، لكن المنصف عندما يتأمل تلك العبارة يتساءل: إذن هناك شريعة خاصة وشرعية مشتركة، فالشريعة المشتركة هي التي أرسلها الله للأحمر والأسود، للجمهور والحكماء. أما الشريعة الخاصة فهي التي يختص بها العلماء وحدهم وهي التي يعرفون بها الله حق معرفته وهي شريعة النظر. وهي الشريعة التي جلاها أحسن ما يكون الجلاء إبراهيم عليه السلام في تلك الآيات التي ما يفتأ ابن رشد يذكرها في فصل المقال ومناهج الأدلة وتهافت التهافت، يذكرها في التهافت ثلاث مرات وفي مناهج الأدلة مرة واحدة وفي فصل المقال مرة واحدة كذلك، وهي الآيات التي تشير إلى العلم الذي خص الله به إبراهيم وشرفه به²، علم النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، وهو العلم الذي جعله يدرك طريق الخواص في معرفة الله تعالى بيقين وهي طريق الحركة وهي الطريق³ التي خص الله بها إبراهيم عليه السلام³ الذي أطلعه³ على الأفعال الخاصة بالأجرام السماوية فتفياً ظلال ملكوتها⁴ الذي أطلع الله تعالى عليه إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: "وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين"⁵.

يرى ابن رشد أن هذه الآيات الكريمة من سورة الأنعام تشير إلى نسق نظام الكون الذي يدل على مبدعه وصانعه، من خلال مثال يرسمه كالتالي: "لو أن إنساناً رأى جمعا عظيما من الناس ذوي خطر وفضل، مكبين على أفعال محدودة لا يخلون بها طرفة عين، مع أن تلك الأفعال غير ضرورية في وجودهم، وهم غير محتاجين إليها، لأيقن على القطع أنهم

1- تفسير ما بعد الطبيعة، تحقيق مورييس بويج، الطبعة الرابعة، دار المشرق، بيروت، 1991 ص 10

2- فصل المقال، مرجع سابق، ص 28

3- مناهج الأدلة، مرجع سابق ص 108

4- تهافت التهافت. تحقيق أحمد محفوظ وفريقه، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1998 ص 149

5- تهافت التهافت، مرجع سابق، ص 257

مكلفون ومأمورون بتلك الأفعال وأن لهم أميرا هو الذي أوجب لهم تلك الخدمة الدائمة للعناية بغيرهم المستمرة، هو أعلى قدرا منهم وأرفع رتبة، وأنهم كالعبيد المسخرين له"¹.

إن إبراهيم عليه السلام يشكل نموذجا عند ابن رشد للنبي المفكر الذي استطاع بنظره وهو يجول في عالم الأجرام السماوية أن يتخلص من الشكوك التي وقع فيها كثير من المفكرين المستبصرين "لأن الشك كله إنما هو في الأجرام السماوية وأكثر النظائر إنما انتهوا إليها واعتقدوا أنها آلهة"²، لكن إبراهيم عليه السلام استطاع أن يثبت من خلال حركتها أنها لا تقوم وحدها بل لا بد لها ممن يقيمها، وهو الدليل نفسه الذي سيعتمده أرسطو فيما بعد ويستدل به على وجود المحرك الأول وهو دليل الحركة.

إن علاقة إبراهيم عليه السلام بأرسطو هي التي تساعدنا على فهم كيف جعل ابن رشد النظر الفلسفي عبادة ينفق فيها بياض حياته؛ فمن دراسة للكتب الطبيعية التي تتعلق بموضوعاتها بالمفاهيم الأساسية للطبيعيات في كتاب السماع الطبيعي إلى دراسة في كتاب السماء والعالم دراسة حركة الكون والفساد في الكتاب الموسوم بالكون والفساد إلى دراسة الظواهر الجوية في الآثار العلوية إلى دراسة المعادن في كتاب المعادن والنبات في كتاب النبات والحيوان في كتاب الحيوان والنفس في كتاب النفس فضلا عن دراسة الظواهر المتعلقة بالتخيل والرؤيا في كتاب الحس والمحسوس؛ هذه جملة الكتب الطبيعية التي كتب لها ابن رشد شروحا صغيرة أو متوسطة أو كبيرة مما اصطلح عليه المختصرات والجوامع والتلاخيص والشروح والمقالات³.

لكن ابن رشد لم يقصر نظره على الطبيعيات بل إنه اشتغل على الميتافيزيقا من خلال ثلاثة أعمال كتبها على كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو؛ حيث كتب له جامعا وتلخيصا ثم شرحا كبيرا، واعتنى كثيرا بمقالة اللام التي عالج فيها دليل العناية معالجة فلسفية بعد أن عالجها في مناهج الأدلة معالجة قرآنية.

1- تهافت التهافت، مرجع سابق، ص 256

2- مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 108

3- انظر في هذا الصدد كتاب المتن الرشدي للمرحوم جمال الدين العلوي، دار توبقال، الطبعة الأولى 1986

فدليل العناية من أهم الأدلة على وجود الله عند ابن رشد ذكره في موضعين من كتابه مناهج الأدلة عند قوله "في إثبات الصانع"¹ وعند قوله في مسألة "إثبات خلق العالم"²، وقد اعتبره إلى جانب "دليل الاختراع" من الأدلة القوية على إثبات وجود الله وإثبات خلق العالم، ويصرح ابن رشد أنه توصل إلى هذين الطريقتين من خلال استقرائه للقرآن الكريم³، فدليل العناية يشمل الآيات التي تدل "على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها"⁴، ويقوم هذا الدليل على أصلين "أحدهما أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الإنسان، والأصل الثاني: أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد"⁵ أما دليل الاختراع فيشمل الآيات التي تتحدث عن "اختراع جواهر الأشياء الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل"⁶، وهو دليل يقوم أيضا "على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس، أحدهما، أن هذه الموجودات مخترعة... وأما الأصل الثاني فهو أن كل مخترع فله مخترع"⁷ ويؤكد ابن رشد أن "من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات... وكذلك أيضا من تتبع معنى الحكمة في موجود موجود، أعني: معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به، كان وقوفه على دليل العناية أتم"⁸. وسيقدم ابن رشد آيات كثيرة تدل على هذه المعاني التي أشار إليها، وهو يجد الآيات في ذلك كثيرة، لو ذهب يعددها لوسعته لذلك مجلدات كثيرة، وهو من شدة شغفه بهذا الموضوع يرجو لو اتسع له الوقت أن يفرد هذا الموضوع بكتاب خاص "في العناية التي نبه عليها الكتاب العزيز"⁹.

1- مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 118 122

2- مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 162. 166

3- مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 118

4- المصدر نفسه والصفحة

5- الكشف عن مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 118

6- المصدر نفسه والصفحة

7- المصدر نفسه ص 119

8- المصدر نفسه والصفحة

9- الكشف عن مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 166

إنها العبادة الخاصة؛ الغاية من التفكير الفلسفي عند ابن رشد وهي العبادة المؤدية إلى المعرفة التامة بالصنعة من أجل معرفة تامة بالصانع، وهو أمر لا يستطيعه إلا الراسخون في العلم من أهل البرهان. ولهذا السبب اشتغل ابن رشد بالعلم الطبيعي بأجزائه الثمانية واشتغل بعمل شرح كبير على كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو، فالقصد من ذلك تحقيق هذه العبادة النبيلة، عبادة النظر في إطار هذه الشريعة الخاصة بالحكماء والتي لا يستطيعها غيرهم إلا قليل.

4-2 - التأويل الفلسفي للقرآن

إذا كان ابن رشد رأى في الطريقة التي استدل بها إبراهيم عليه السلام على وجود الله من نظره في الأجرام السماوية هي طريق الحركة التي استدل بها أرسطو على المحرك الأول في المقالة السابعة وآخر المقالة الثامنة من السماع الطبيعي، فإن ابن رشد لن يلبث أن يجد في القرآن الكريم أدلته على بعض القضايا الفلسفية التي كثر الجدل حولها في الفكر الفلسفي ما بين مدافع ومناهض، محب وقال.

- السجال مع الغزالي

في سجاله مع حجة الإسلام؛ أبي حامد الغزالي الذي أنكر على الفلاسفة قولهم بقدوم العالم وإنكارهم الحشر الجسماني وقولهم إن الله يعلم الكلّيات، يستنجد ابن رشد بالقرآن الكريم يستدل بظواهر آياته، وبخاصة فيما يتعلق بقدوم العلم وحدوثه، فبعد أن عرض ابن رشد للاختلاف في هذه المسألة بين المتكلمين والفلاسفة¹، يعرضها على ظاهر الشرع فيجدها بعيدة عنه "فليس في الشرع أن الله كان موجودا مع العدم المحض، ولا يوجد هذا فيه نصا أبدا" كما يقول²، فالمتكلمون هم متأولون أيضا، وقولهم ليس على ظاهر الشرع، بل "إن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة في الإنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين"³ ويستظهر ابن رشد على ذلك بالآية السابعة من سورة هود، التي تقتضي

1- فصل المقال، مرجع سابق، ص 41

2- المصدر نفسه ص 43

3- المصدر نفسه ص 42

بظاهاها "أن وجودا قبل هذا الوجود، وهو العرش والماء، وزمانا قبل هذا الزمان"¹ أما الثامنة والأربعون من سورة إبراهيم فتقتضي بظاهاها "أن وجودا ثانيا بعد هذا الوجود"² أما الآية الحادية عشرة من سورة فصلت فتقتضي بظاهاها "أن السماوات خلقت من شيء"³. إذن فظاهاه الشرع موافق لما قرره المشاؤون من فلاسفة الإسلام، وحتى لو أخطأ الفلاسفة في هذه الأمور فليس هذا بالخطأ الذي يخرج عن الملة، فهو خطأ مصفوح عنه لأنه يقع "من العلماء إذا نظروا في الأشياء العويصة التي كلفهم الشرع بالنظر فيها" و"المصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم فمعذور"⁴، ويستظهر ابن رشد على قوله هذا بقول الرسول عليه السلام "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد"⁵. والحاكم هنا هو الفيلسوف الذي يحكم على الوجود أنه "كذا أو ليس بكذا"، وهو العالم الذي خصه الله بالتأويل. وهذا الجمع في الحاكم بين الفيلسوف والعالم من دقائق التخلص عند ابن رشد. أما المسلك الرشدي في الاستظهار بالقرآن على القضايا الفلسفية فقد جعله منسجما مع نفسه وهو يحترف المهنتين؛ مهنة قاضي القضاة ومهنة الفيلسوف. الشارح.

- مفاهيم قرآنية بمضمون فلسفي

سبق أن رأينا كيف تأول ابن رشد مفهوم "الاعتبار" الوارد في آية سورة الحشر وجعله مرادفا لمفهوم القياس. لقد صنع ابن رشد كثيرا من ذلك في نصوصه الفلسفية مقربا النظر الشرعي من النظر الفلسفي انسجاما مع رؤيته التي لا ترى تعارضا بين النظرتين إلا أن يجمع بينهما بتأويل.

فالنفخ في الصور عند ابن رشد، الذي هو سبب الصعقة، هو وقوف الفلك.⁶

وقوله تعالى "له معقبات من بين يديه" يعني أن إرادتنا محفوظة بالأمور التي هي من خارج ومربوطة بها¹

1 - المصدر نفسه والصفحة

2 - المصدر نفسه ص 43

3 - المصدر نفسه والصفحة

4 - المصدر نفسه والصفحة

5 - المصدر نفسه والصفحة

6 - الكشف عن مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 165

ومفاتيح الغيب عند ابن رشد هي معرفة الأسباب، "لأن الغيب هو معرفة وجود الموجود في المستقبل أو لا وجوده، وترتيب الأسباب ونظامها هو الذي يقتضي وجود الشيء في وقت ما أو عدمه في ذلك الوقت، فالعلم بالأسباب على الإطلاق هو العلم بما يوجد منها أو ما يعدم في وقت من أوقات جميع الزمان... وهذه هي مفاتيح الغيب المعنية في قوله تعالى: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو"².

ويشرح ابن رشد قوله تعالى "إن الشرك لظلم عظيم" بمعنى الجهل بالله "فإنه على قدر عظم الوجود يعظم الجور في حقه الذي هو الجهل به"³

أما الآيات التي تقول بضلال الإنسان فلا ينبغي عند ابن رشد حملها على ظاهرها، فالله لم يخلق الناس للضلال، إنما ضلال الإنسان يعني أنه مهياً للضلال، يعني أن طباعه مهياً للضلال⁴

أما اللوح المحفوظ عند ابن رشد فهو "النظام المحدود الذي في الأسباب الداخلة والخارجة، أعني التي لا تخل، هو القضاء والقدر الذي كتبه الله تعالى على عباده، وهو اللوح المحفوظ"⁵.

التفسير الفلسفي للقرآن

لا شك أن ابن رشد وهو يستدعي الوحي للتدليل على بعض القضايا الفلسفية إنما يقوم بتفسير يعتمد الرأي، وهو تفسير قد لا يجد قبولا على أساس أن التفسير يجب أن يستند فقط على المأثور من أقوال الرسول عليه السلام أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وليس الأمر كذلك كما بين ذلك الطاهر بن عاشور في المقدمة الثالثة من "التحرير والتنوير"، مؤسسا مذهباً يقول إن كل مفسر يقول في معنى الآيات بما ظهر له باستنباطه واضعاً خمسة شروط لهذا الضرب من التفسير بحيث يكون للمفسر له أولاً نظر "في أدلة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريقها، وما لا بد منه من معرفة الناسخ

1- المصدر نفسه، ص 189

2- الكشف عن مناهج الأدلة ص 189. 190.

3- فصل المقال، مرجع سابق، ص 49

4- الكشف عن مناهج الأدلة، مرجع سابق، ص 195. 197.

5- المصدر نفسه، ص 189

والمنسوخ وسبب النزول¹ ثم ثانيا إحاطة بجوانب الآية²، ثم ثالثا أن يكون متحررا من أي مذهب أو نحلة يتعصب لها "فيتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف،³ ثم رابعا، أن لا يظن أن تفسيره هو المراد دون غيره لما في ذلك من التضيق على المتأولين⁴ كما يقول، ثم خامسا، أن يكون القصد من التحذير من التفسير بالرأي "أخذ الحيلة في التدبر والتأويل ونبذ التسرع"⁵ ليس غير، فأين ابن رشد من هذه الشروط في تفسيره؟

ليس القصد هنا محاكمة فقيه . فيلسوف مثل ابن رشد يحرص على ظواهر الشرع ويتحاشى تأويلها بما يصرفها عن المعنى الذي قصده الشرع بها، وهو الذي كان شديدا على المؤولين للقرآن بغير قرائن قوية من سماع أو برهان، إنما الغرض الذي نرمي إليه أن نتابع الوقوف على مغامراته في تفسير أي الذكر الحكيم وتوظيفها في منازلاته الفلسفية خاصة مع أبي حامد الغزالي، مبينا أن ظواهر الشرع تشهد لما يقول به القوم، حسب تعبيره، أي الفلاسفة، أو تشير إشارات إلى هذه المعاني بأسلوب يفهمه الجمهور والخواص فهمين مختلفين؛ أحدهما فهم ظاهر والآخر فهم باطن أعمق.

ونحن هنا نقدم أمثلة على ذلك.

يؤكد ابن رشد أن ما تبين في كتاب "السماء والعالم" ببرهان، وبينه هو في "التهافت" بإقناع هو ظاهر قوله تعالى "لا تبدل لكلمات الله" و"لا تبدل لخلق الله"، ويدعو ابن رشد أهل البرهان لتلمس الأمر في موضعه من كتب البرهان، لكن ما هو هذا الأمر؟ إن هذا الأمر يتعلق بالجواب على السؤال: لم كانت السماوات تتحرك إلى جهات مختلفة؟ وهو قول في الطبيعيات يثير إشكالات، أجاب عليه الغزالي بحجج فيها خلل، ويرده ابن رشد إلى ما يراه صوابا منتقدا طائفة المتكلمين الذين لم تظهر لهم الحكمة المقصودة من صنع الجرم السماوي، فقالوا فيه بالظنون، حيث تعجلوا وحكموا على المخلوقات ببادئ الرأي، فكانوا من الذين قال فيهم سبحانه "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل

1- تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس الجزء الأول ص 30

2- المصدر نفسه والصفحة

3- المصدر نفسه ص 31

4- المصدر نفسه ص 31

5- المصدر نفسه، ص 31. 32.

سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"¹، وكان عليهم أن يطلعوا على الأفعال الخاصة بالأجرام السماوية بالاطلاع على ملكوتها الذي أطلع الله عليه إبراهيم عليه السلام كما تجليه الآية الكريمة "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين"².

ثم إن جميع الأفلاك تتحرك، وقد صح عند الفلاسفة حسب ابن رشد "أن الأمر بهذه الحركة هو المبدأ الأول، وهو الله سبحانه، وأنه أمر سائر المبادئ أن تأمر سائر الأفلاك بسائر الحركات، وأن بهذا الأمر قامت السماوات والأرض كما قال الله تعالى "وأوحى في كل سماء أمرها"³.

وفي انتقاده لمذهب ابن سينا فيما سمي نظرية الفيض، يؤكد ابن رشد أن مذهب أرسطو في ذلك أن للمبادئ من المبدأ الأول مقامات معلومة لا يتم لها وجود إلا بذلك المقام منه، ويستشهد بقوله تعالى "وما منا إلا له مقام معلوم" ليؤكد أن الارتباط بين المبادئ هو الذي يوجب كونها معلولة بعضها عن بعض وجميعها عن المبدأ الأول..⁴

أما الحركة العظمى اليومية الفاعلة لليل والنهار فهي ضرورية في وجود المخلوقات وحفظها، وقد نبه الكتاب العزيز على العناية بالإنسان بتسخير جميع السماوات له في غير آية مثل قوله سبحانه: "وسخر لكم الليل والنهار" الآية.⁵

أما الكواكب فتتحرك حركات ذوات "أشكال محدودة، ومن جهات محدودة، ونحو أفعال محدودة"⁶، وهذه الأفعال المحدودة لا تكون إلا عن موجودات مدركة حية ذوات اختيار وإرادة، ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً "أن كثيراً من الأجسام الصغيرة الحقيقية الخسيسة المظلمة الأجساد.. لم تعد الحياة بالجملة.. وإن الجود الإلهي أفاض عليها الحياة

1- نهافت التهافت، المرجع السابق ص 149

2- المصدر نفسه، ص 148، 149

3- المصدر نفسه، ص 252

4 - المصدر نفسه، ص 252، 253

5- المصدر نفسه ص 254

6- المصدر نفسه ص 255

والإدراك التي بها دبرت ذاتها وحفظت وجودها"¹ مما يدل دلالة واضحة "أن الأجسام السماوية أخرى أن تكون حية مدركة من هذه الأجسام لعظم أجرامها، وشرف وجودها، وكثرة أنوارها كما قال سبحانه لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون"²

والمأمل لهذه الأجسام العظيمة الحية الناطقة المختارة المحيطة بنا. .. مع عنايتها بما ههنا هي غير محتاجة إليها في وجودها"³، مما يدل "أنها مأمورة بهذه الحركات. .. من قبل. .. الأمر وهو الله سبحانه، وهذا كله معنى قوله تعالى "أتينا طائعين"⁴

والسماء عند القدماء هي بمنزلة حيوان واحد، يعني "أن فيها قوة واحدة روحانية بها ارتبطت جميع القوى الروحانية والجسمية وهي سارية في الكل سريانا واحدا، ولولا ذلك لما كان هاهنا نظام وترتيب، وعلى هذا يصح القول إن الله خالق كل شيء وممسكه وحافظه كما قال تعالى "إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا"⁵.

ثم إن المبدأ الأول هو الذي أعطى الموجودات المحسوسة الوجدانية على أنه فاعل وصورة وغاية، وصارت جميع الموجودات تطلب غايتها بالحركة نحوه، وهي الحركة التي تطلب بها غاياتها التي من أجلها خلقت وهذه الحركة تكون "جميع الموجودات بالطبع وتكون للإنسان بالإرادة. ولذلك كان مكلفا من بين سائر الموجودات ومؤتمنا من بينها وهو معنى قوله تعالى: 'إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال'".⁶

وعن العلم الإلهي نجد ابن رشد في التهافت يؤكد أننا ندرك أن العلم الإلهي هو أشبه بالعلم الشخصي رغم أنه ليس كلياً ولا جزئياً، ومن فهم هذا المعنى عنده فهم معنى قوله تعالى: "لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض"⁷.

1- المصدر نفسه والصفحة

2- المصدر نفسه والصفحة

3- المصدر نفسه والصفحة، بتصرف

4- المصدر نفسه، ص 255

5- المصدر نفسه ص 282

6- تهافت التهافت، مرجع سابق، ص 284

7- المصدر نفسه، ص 370

أما عن المبادئ المختلفة التي تدبر الكون ف"لو كانت.. بعضها مطلقا من بعض، أعني ليس بعضها عللا لبعض، لما كان من العالم شيء واحد ومرتبطة، وهذا المعنى هو الذي دل على إبطاله قوله سبحانه: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"¹.

أما الحدوث الذي صرح به الشرع فهو من نوع الحدوث المشاهد هاهنا، ويدل على ذلك قوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقا ففتقناهما"².. وقوله تعالى "ثم استوى إلى السماء وهي دخان"³، وأما كيف حال طبيعة الموجود الممكن مع الموجود الضروري فسكت عنه الشرع كما يقول ابن رشد لبعده عن أفهام الناس ولأن معرفته ليست ضرورية في سعادة الجمهور.⁴

أما كيف توصل الفلاسفة "إلى موجود ليس بمحسوس هو علة ومبدأ للوجود المحسوس" فإنهم "اعتبروا الأسباب حتى انتهت إلى الجرم السماوي، ثم اعتبروا الأسباب المعقولة" حتى توصلوا لهذا الموجود وهو معنى قوله تعالى "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض.." الآية⁵.

أما إذا عرض للراسخين في العلم تأويل في مبدأ من مبادئ الشريعة "ففرضه ألا يصح بذلك التأويل وأن يقول كما قال سبحانه "والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا"⁶.. وهو هنا يختار وقفا آخر للآية ليمنع على أولي العلم التصريح بالمسكوت عنه في الشرع مما ظهر لهم بعد تأويل.

أما الكلام في النفس فغامض جدا، ولم يختص به الله إلا العلماء الراسخين في العلم، ولذلك قال الله سبحانه مجيبا في هذه المسألة للجمهور عندما سأله بأن هذا الطور من السؤال ليس هو من أطوارهم وذلك في قوله تعالى "ويسألونك عن الروح."⁷

أما الأمر في المعاد، فقد مثله القرآن الكريم بالأمور الجسمانية وليس بالأمور الروحانية كما صنعت الفلسفة، لأن ذلك "أحث على الأعمال الفاضلة"، فقال سبحانه "مثل الجنة

1 - المصدر نفسه، ص 395

2 - سورة الأنبياء، آية 30

3 - سورة فصلت آية 10

4 - تهافت التهافت، مرجع سابق، ص 408

5 - المصدر نفسه، ص 423

6 - تهافت التهافت، مرجع سابق، ص 511

7 - المصدر نفسه، ص 534

التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار" وقال النبي عليه السلام "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، وقال ابن عباس: "ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء"¹، فدل ذلك على أن ذلك الوجود نشأة أخرى أعلى من هذا الوجود، وطور أفضل من هذا الطور"²

إن هذه العبادة الخاصة تقوم على علاقة النبوة بالحكمة، فكل نبي حكيم عند ابن رشد. وتعتبر هذه الدعوى الرشدية من أصدق القضايا عنده³، فالوحي لا يخو من حكمة أبدا، وإن خلت الحكمة من النبوة إذ "ليس كل حكيم نبيا" عنده⁴. فقد كان في بني إسرائيل حكماء كثيرون، ويستشهد ابن رشد على ذلك بالكتب الموجودة عند اليهود والمنسوبة إلى سليمان عليه السلام. وهذا الإخاء بين الوحي والحكمة تجلى أيضا في إسلام حكماء الإسكندرية لما وصلهم الإسلام، وكذا تنصر حكماء الروم لما وصلتهم شريعة عيسى عليه السلام، ولذلك كانت الحكمة موجودة دائما في أهل الوحي، فالنبي حكيم وخلف الحكماء، وليس هؤلاء سوى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء كما يقول ابن رشد⁵.

فما موقف الحكماء من الشرع؟

في أواخر كتاب التهافت يعبر ابن رشد عن رأي يجعل فيه الحكماء بأجمعهم، أشخاصا يتعلمون من الأنبياء حيث يتقلدون منهم مبادئ العمل والسنن المشروعة التي تحرك الجمهور للأعمال الفاضلة ويذكر مثالا على ذلك الصلوات عند المسلمين التي شرعت لغاية الفضيلة العملية⁶، وكذلك المعاد، ولذلك لا ينبغي الشك في مبادئ الشريعة ومن فعل ذلك استحق عقوبة الكفر عنده. إن ابن رشد هنا فقيه يفتي وليس فيلسوفا يحلل، وهو يفتي بحزم لأن الأمر يتعلق بنظام المدينة وليس بنظام الشريعة فقط، إذ إن الجدل في المبادئ سيفصم عرى السنن التي تقوم عليها المدينة ويدخلنا في فوضى لا قبل لنا بها، وشعار ابن رشد "إنما بعث الشرع لرفع الخلاف" كما يصرح في بداية المجتهد.

1- المصدر نفسه ص 557

2- المصدر نفسه والصفحة

3- يقول ابن رشد: "أصدق كل قضية، هي أن كل نبي حكيم"

4- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

5- تهافت التهافت، مرجع سابق، ص 556

6- يذكر ابن رشد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى وأنه يوجد فيها هذا الفعل أتم منه في سائر

الصلوات الموضوعة في سائر الشرائع. تهافت التهافت، مرجع سابق، ص 557.556

وأخيرا، هل يمكن القول بعد كل هذا إن ابن رشد كان يسعى إلى تحرير العقل من الإيمان كما دأب بعض المستشرقين على القول، إن النفس الفلسفي عند ابن رشد مضمخ بنفس شرعي قوي يخترق نصوصه كلها كما رأينا في الثلاثية وما بعد الطبيعة ونجده في شرحه على السماع والعالم يتحدث عن الإصلاح الذي قام به للشرعية التي داخلها التغيير، وفي تلخيص الجدل ينكر على من يجادل في مبادئ الشريعة مثل أن يتساءل هل الله موجود أم غير موجود؟ لأن الجدل في مبادئ الشريعة محرم عنده.

لقد كان ابن رشد مجتهدا في الفقه ومجتهدا في النظر العقدي وكان كذلك مجتهدا في النظر الفلسفي بمعنى أنه كان حريصا على أن يستنبط من الكتاب العزيز وأحاديث الرسول الأكرم معاني تنسجم والقضايا الفلسفية التي كان يدافع عنها القوم ويرونها أقرب إلى الحقيقة متخذا من اعتبار الموجودات أو على الأصح اعتبار النصوص الأرسطية على الخصوص سبيله إلى ذلك.

لقد كانت نظرة ابن رشد إلى أرسطو نفسه لا تخلو من هذا البعد الإيمانى الذي عرف به، فقد كان ابن رشد فعلا منبرا بهذا العمل الضخم الذي قام به أرسطو؛ رجل أقام الصنائع الفلسفية على سوقها بهذه الضخامة ليس رجلا عاديا عند ابن رشد؛ لم يستطع ابن رشد أن يفسر هذه الظاهرة إلا بأن جعل أرسطو الرجل الذي أبرزته العناية الإلهية لتجسد من خلاله الكمال الإنسانى محسوسا مشارا إليه. ولأن لابن رشد احتراما شديدا لشيخه الذين علموه، إذ يعتبرهم أفضل من الآباء؛ "لأن الآباء ولدوا أجسامنا والعلماء ولدوا أنفسنا، [لذا] فالشكر لهم أعظم من شكر الآباء والبر بهم أوجب والمحبة فيهم أشد والافتداء بهم أحق"، ولأن الحق قد كمل مع أرسطو فإن شكر هذا الرجل سيكون عند فيلسوفنا ب"العناية بأقاويله وشرحها وإيضاحها لجميع الناس، لأن الشريعة الخاصة بالحكماء هي "أشرف العبادات... وهي الطاعة التي هي أجل الطاعات"¹.

وهكذا دخل ابن رشد لجة مغامرة فلسفية فريدة من نوعها لم يجد في مجتمعه العلي من يتجاوب معها، بل نكب بسببها نكبة² أهمته، حتى إذا قضى أصبح عبرة لمن اقتحم علوم الفلسفة وكاد ذكره أن يعفو في عالمنا الإسلامى، لولا بقايا أثره هناك وهناك.

1 - تفسير ما بعد الطبيعة، مرجع سابق، ص 9. 10.